

كانت رسالتك الاولى دعوة مغرية ، اعطتني من حماسها وشوقها شيئاً كثيراً . واشهد انني منذ اعوام لم اقع على مثل

# مأساة نفس!

كان المنصب إجهازاً على ما تبقى من رسيس الشعلة المنطفئة . خمسة اعوام وانا اقتطع من جسدي وروحي لأتقم هذا

بَعَثَ فَنُورَ الشَّيْبِ

الجهاز الرسمي الذي ينتظمي كأبي قطعة صغيرة في آلة ضخمة . وفي دورانه المستمر ضيعت قلبي واوراقي ، وأماني . كنت احلم بمجدادبي لا تدانيه الامجاد والوجاهات السياسية والاجتماعية والمالية ، لانه المجد الانساني الاول ، ولكن الجهد الشاق في عملي اليومي ارخى يدي عن عنان طموحي ، واحالني إلى تفاهة رخيصة ما زالت تتخذ اشكالاً تطورية داروينية وتمر بمحلفات ودرجات حتى غدت كما رأيت انت ، منصباً رفيعاً ! فيا لها من سخرية هيفاء جذورها لا تنمو الا في نجيبي ودوحتها لا تنتشر الا فوق حبتي الميتة .

على انني خلال سبعة اعوام سبقت الخمسة الاخيرة كنت وانا موظف احاول مبناعة ضارية كمناعة هرّة بريّة ، ان الف ذاتي بالحمول وارتفاعها فوق تكاليف الموظفين على الرتب والدرجات ، لأبقى في نجوة عن الانخراط في جهاز الدولة ، قطعة صغيرة تدور على نفسها ، وتنسحق على محورها ، فاظفر بذلك الفراغ الرطب مطاراً لأفكاربي ، وميناء لزورقي ، وفسحة من السماء زرقاء استرحم بين دوائرها كلما أقيمت اليها بحصاي .

ثم غلبت على امري وكلبت .. لأن من هم ورائي عضوا عقي .. ورأيت الاقدام تدوسني وتمرّ ..

هبطت من جنتي ، وانحسرت في البشرية الغائبة . حملت هراوتي وارادت ان اقتل خوفاً من أقتل . واستغلظت آدميتي الجديدة ، وهي آدمية سكان الكهوف ، وحاولت انفلتاً . على انني عندما أجت الطرف حولي ، لم أر سوى كل صدر كثر الشعر وكل ساعدين غوريلايين ، وهراوات ضخمة . ولم اسمع كلمة دهشة او دعوة الى صلح ... اللهم الا من افواه حطمت الهراوات اسداقها ، وخرج اصحابها من المعركة منتوفي الشعر . .. تلك مرحلة هستيرية مرت بها . ومرت بلادي وبلادك وبلاد الله اجمع . ولا ادري اي وحشية اثارها في النفوس رائجة الشواء البشري من هيروشيما .

يأس من الاصلاح والصلاح . قَرَفُ من الدعوات الى عالم جديد . هزء بالمثاليات ودعاتها . لقد خرج العالم مسعوراً من حروب التقتيل والتدمير . ومن خرج سالمأ برأسه ، يود لو

هذا الصدق والقوة والعزم في رسائل الاخوان والأصدقاء . فقد انطفأت الشعلة الأدبية في بلاد الناطقين بالعربية ، وغدت التوافه والتوابل بضاعة الكتاب والناشرين فانجرفت في التيار تلك الأدمغة الكبيرة نفسها وشوهدت ، جماجم فارغة ، تطفو في الزبد والغناء . فاين عناصر الدم والفولاذ في كيان هذا الادب المصاب بكساح الاطفال ؟

ولقد رأى المُقعّدون امثالي في ما يرون ، حجة لانعزالهم وانكماشهم فحسبوا في عزلتهم التافهة انهم قد نجحوا من التيار ومثلهم مثل من هرب من الدب فوقع في الجب . واي جب ! اما رسالتك الثانية فكانت بقصرها وخطوطها البارقة ، ولهجتها المعنفة ، كدفقة من رشاش تلطمني بها يد قوية . وبالواقع انني ما زلت احلم ... منذ تلوت رسالتك الأولى ، فما كدت استيقظ وامسح رشاش الماء عن وجهي حتى بدأ جبيني يتفصد عرقاً بارداً فيه رائحة الحجل منك ومن نفسي .

انا آسف يا اخي اذ انام على رسالتك ، وفيها من السياط والأبر ما لا ينام على مثله إلا كل فاقد الحس مخبول . وهل ارضى لنفسي من ان اعترف بعجزها ؟ ! بل انني لأذئ هذه الاعترافات احياناً ، كما يلذ اليائس لحناً حزيناً يأتيه من بعيد ، فاذا جاء في صوت يهز كياني وينفخ في طموحي ويقول لي : انت .. ! شعرت بهذه ( الأنا ) تتلون كبعض الحشرات الصغيرة ، يصيبها الدفء وتغريها اجنحة الفراشات السابحة في النور .

انا في حياتي الادبية كجمل مقعد ، يعيش على اجترار الرواسب في معدته . وهب انها سبع معد .. فقد آن لها ان تفرغ . وإن الجمل ليرتقب مصيره : فأس خطاب تهوي على عنقه ، فتفصل الرأس الحاوي عن المعدة الجافة . ذلك هو مصير الجمال المكسورة ولو كانت من سلالة تلك النجب التي جاز بها الصحراء من العراق الى الشام بطلنا العربي .

.. وفي حياتي العامة .. انا لست سوى حركة تأكل نفسها ، وتعض بانبيها على كبدها وتغرق . قد تغرق فيما اردت ان تسميه « المنصب الرفيع » . ولكنه غرق على كل حال . ولقد

تطاح دونه ملايين الرؤوس . ولقد اعربت تلك المانفسيستية السارترية ، عن حقائق القرف والهزء والاستهتار والانغماس في سكرة عارمة ، هي سكرة المحكوم بالاشغال الشاقة عشرين عاماً ، يغادر الحبس ذات مساء فلا يطيب له الا ان يعوج على تلك الحمارة القديمة التي ارتكب فيها جريمته الاولى .

اخى

إخالي ماضياً في بئك نجواي وهو اجسي . ولكنني اقف وامسك باذيال نعمتي لاستوقفها . اذ لا يحق لي باي لغة من لغات الادب والتاريخ وباي نظرة من نظرات الموضوعية والذاتية ان افسو بالحكم على الناس في بلادي . فهناك عقدة لا بد من جلائها في نفسي عندما أحلها في وسطها ، وثمة وجه ثانٍ للصورة التي عرفتها عني منذ دقائق ، يجب ان تعرفه . ثم أرجو ألا تقذفني بظنك اني خرجت الآن من صدق الشعور إلى سفسطة المنطق ، لأخلق لنفسى الحجج والمبررات ، او أنكيس بنوع من الابهام لخدع نفسي والناس معاً . فحديثي لا يزال حديث شعور صادق فأحسن الظن بي واسمع :

لست من جيل مادي . لقد وعيت واقرا في الحياة عام ١٩٣٠ وكان زمن نضال رهيب وتأجيج وطني شامل . كان الاستقلال والحرية كل ما ننتشد ، وكان العالم ينتهي حيث تنتهي سوريا مجدودها . كل شيء ينبض بكره الاجنبي وبالحدق عليه ، فلا مشاريع عمرانية او اقتصادية ، او صناعية ، ولا رجاء في غد لا يجلو فيه الأجنبي او يندثر . والحياة الأدبية ، كانت زاهرة ، لان الادب في وسط لا فعالية فيه ، عوضاً عن الفعالية ، وشيء من الهروب المثالي من واقع مظلم الى عالم افضل ! كان الأدب — اقول — عوضاً لا اصلاً ، وأهيةً عابرة لا شعلاً فكرياً . فاذا استطاع الأديب أن يشترك في مظاهرة ، أو يضرب حجراً ، أو يجار بصوت غليظ ناقم ، أو يقذف بكلمة قاهرة ، نقس عن كفته ، وأعرب عن ألمه وأمله ، باكثر ما يفعل في مقال أو قصيدة أو قصة .

وكان الاستقلال — والحرب قد انتهت — دعوة عامة الى العمل ، والجد ، والحركة ، والتعويض عما فات ، واللحاق بمركب المدنية . لقد أفلت العملاق من التقمم ، وراح يملأ الأرض دويماً . لا بد أن يسير بساعة ما اجتازه الآخرون بشهور وأعوام ، وإلا ظل في مؤخرة القافلة عبداً ذليلاً ، بديلاً عن عبد أسير . وان يكن للأسر حجته ... فما حجة الذل ؟ !

وانتشرت بلادي في أربعة الآفاق ، تنشىء وتبني وتنطلق . ولقد شادت في سبعة أعوام ما لم تستطع أن تشيده طوال أربعة قرون من حكم عثماني وربع قرن من عهد انتدائي . وطاب لها الظفر وأدركت أن الخطى وحدها لا تدنيها من الغاية ، فلا بد أن تنطلق عدواً وقفزاً ، فراحت تتخطى الحواجز ، وتحرق الأشواك ، وتفجر الرواسي ، وتقلب القيم والتقاليد .

وبينا هي تبني ، وبيننا يغني كل حجر في البناء اغنية الحرية والسعادة ، وجدت بلادي نفسها امام خطر جديد . فلا بد لها ان تبني ولا بد أن تحمي ما تبني . فاضطربت سعادتها ، والتوت حريتها ، وها هو الخطر يقرع اسوارها وهي في المقدمة وخط النار ، فيجب ان تحيط كل حجر بسور ، وتحمي كل شبر من ارضها بدرع ، وإلا فلن يعمل هؤلاء البناؤون ، ولن يرفعون عمد النهضة ؟ !

الا ويلنا من البرابرة الجدد !

لقد رمانا المستعمرون ، وتجار السلاح بالصهيونية ، وغرسوها شوكاً في جنبنا ، لأن حريتنا المشرفة توشك ان تهدد حياة الاستعمار برفع راية السلام بين المتخاصمين ، اذ عندما نتحرر فقيم يتخاصمون ، وحول اي ارض يتكالبون ؟ ! ان الفريسة خلقت وحدها الفرسان ، وعندما تنجو بنفسها . فلا فروسية !

نحن كما ترى — في غمار حركة عارمة صاخبة ، قوامها المادّة . فلا بد أن نكون اغنياء ، ولا بد أن نكون اقوياء ، وكلا الغنى ، والقوة دعوة الى كل ما هو مادي ، حقيقي ملموس نستطيع ان نطمئن اليه . واذا ينظر الأديب لأول وهلة الى هذه الحركة الصاخبة ، نظرة ريبية وحنق ، لا يلبث ان ينساق في المتالية التي من اجلها تحشد الثروات وتجنّد القوى ، واذا ما حشدت هذه القوى فمن العار ان يتخلف فئة من الناس ، ويعتصموا بابراجهم ، ويمتنعوا عن دفاع وراء خطوطه كل ما يملكون وما يحبون ، من قيم مادية ومعنوية !

... وتمر بي ايام عصبية ، وانا مكثور بعلمي اليومي ، فيقول لي صديق : الا تصنع شيئاً من الأدب ؟ ! فألوي شفتي ساخراً واصيح : اي ادب يا اخي ! الا ترى اننا نبني عمارات وحصوناً دونها ، فكل حجر فيها قصة ، ولكل ذرة تراب قصيدة ! اليس لأزيز هذه الطائرة ترعد في الفضاء ، موسيقا رائعة ، تبعث في النفس كل الرضى والراحة ؟ ! وهذا الجيش

بوجوده السمرة الثابتة .. ليس مروره امام عينيك فكرة للمحمة جديدة ، لا مثل لها في تاريخ ادبي ، وبلادي ؟ ! واي صورة جميلة في بلادي الحبيبة ، لا اقرنها باليد التي ترمي الويل ، واليد التي تصونه !

أخي سهيل

قد تعذرني اذا رحمت اسهب ، ووجدت نفسي مسوقاً لأن احكي لك بسفور سيرة شعب ومأساته . وقد تفهم معي نفسية رجل مثلي نشأ شبابه على شيئين اثنين عندما بدأ قلبه الأبيض يخفق منفعلًا بالحياة حوله : حب لمرتين وامثاله ، وكره السنغال واشباههم !

قد يكون الأدب هوأتي ، وهو اي . . . وهبتي ، ولكن من انا من الأنا لانسى الليالي التي روّعت قلبي الصغير ببريق التفجير ، وهدير التخريب ! من انا لانسى مشهد الحجير تحمل ذات صباح ، الى ساحة المدينة نجمة من مجاهدي بلادي ، فيرمون على الأرض اشلاء ممزقة دامية ، ليعتبر بها كل من تحدته نفسه بشورة او تمرد !

ثم و ثم من انا لانسى صباحاً اغارت فيه طائرات البرابرة الجدد على المدينة ، وراحت ترمي قذائفها ، فأرى جدار جاري يتهدم ، ويبدو لي من فجوته سرير جاري الصبية وقد مزقتها الشظايا في بياض أعظيتها ، وما كادت تستيقظ . . .

من انا لانسى الليالي السود ورائي . . . والليالي السود أمامي ! وهل أرى في يقظتي ومنامي سوى هؤلاء الأفرام من بابل الجديدة بينون حصوناً ، ويضعون سلاحاً ، ولا ينفكون يذهبون ويجيئون في دوار من حماسة جنون ، وشهوة شيطان . عيونهم المحر على حدودي ، وأرضي وعاصمتي ، وبيتي وأولادي ، وأوراق ومذكرياتي ، وصورذ كريات ، وأرواح آبائي واجداد ، وكل من أحب في هذه الدنيا !

من أنا لأنكر في وجه بائع الحليب من فلسطين يمر أمام بيتي كل صباح ، شبح مستقبلي ومستقبل وطني ؟ ! يمر بائع الحليب من فلسطين أمام بيتي لبيعي ما فاض عن حاجته من مواد الاغاثة . . . وقد كان موظفًا مثلي في فلسطين ، وكان له مستقبل في إحدى مؤسسات بلاده . إنه يبيعي الحليب ليشتري خبزاً لثلاثة أطفال تركهم منذ يومين تحت الحيام المنهارة ، بلا خبز ولا أمل . فكم هي المسافة بالأعوام - قل لي - بين مصير أولادي ومصير أولاده ؟ !

ألم تكن الغسالة التي تأتيني كل أسبوع لتنظف ثيابي ، ربة بيت محترم في يافا قبل أعوام ؟ ان ابنتها يلتمها السل في أحد المصححات وما كادت تبلغ الخامسة عشرة من سننها . . . ! وابنتي أنا - إقبال - ان لها من العمر عشرة أعوام . فهل تغدو حبيسة أحد المصححات بعد خمسة أعوام ؟ ! في أحضان من وفي أي جهنم من بلاد الله !

هل تأتيني أنت لاجئاً ، ذات يوم تحمل أمتعتك على ظهرك ، ولا تعرف أين تغمد قلمك . أفي نحر ك فتخلص من الحياة . أم في أي عمل حقير تبقى به على حياتك الطويلة التافهة !

هل تأتيني أنت . . . أو أنني أنا الذي أصلك قبل ، مشياً على الأقدام من دمشق إلى بيروت ، وقد دفنت أحد أولادي على قارعة الطريق ، ولا أعلم في أي منصعة أووي البنين وأم البنين ! فهل في أزقة بيروت وأرصفتها مكان بعد للاجئين جدد ؟ وماذا أنت فاعل باحمالي ، وأوجاعي ، وجراحي . . . وهؤلاء الذين علقوا بكبدي كأختام من رصاص ؟ !

ألا تفضل على هذا المصير ، أن تموت في معركة ، وتقتل أولادك من قبل ، إذا لم يكونوا صالحين وقوداً للحرب المقدسة ؟ أيها الأخ الكريم ! قد أكون مريضاً - كما قد ترى - والحق أنني مريض ، ولا أستطيع أن أبرأ من هذه اللوثة التي رماني بها شوب النار حولي وبأذيالي ، بينما كنت أظن أنني في أمن وسلام !

أواه ! هات لي الأمن والسلامة ، والفراغ ، أعطك ما شئت من الأدب وفنونه . أو لم يكن ازدهار الادب عبر التاريخ ، في أجواء الطمأنينة والرخاء ؟ أو لم تكن حماية الدول والملوك والعظماء ، للأدباء ورجال الفن ، نوعاً من سرادق الطمأنينة تضرب أوتاره حول حياتهم ليستطيعوا أن ينقطعوا لادبهم وفنهم ؟ !

بلى ، أن ثمة عبقریات تغذت بالنار والغبار . ولكن ليس في الاتون يصب الحبر على الورق ، ولم يكن للكتاب بد من الارتفاع إلى قمة الراية حيث الظل والهدوء ، بعيداً عن النار ، ولو لأمد قصير . أي لا بد من الابتعاد عن الحدت مسافة زمنية ومكانية ، تتيح لنا النظر اليه والاحاطة بحقيقته . أما الحدت نفسه في فورة تفاعله ، فهو يشعل ويحجب ، ولا يمكن تعريفه في فوريته . وإن يستطع المؤرخون والكتّاب السياسيون أن يمشوا الاحداث ويكتوبوها في اصطراعها ، فان

قوة الآلهة! وماذا بيدك انت لي؟  
 ابوسع جرة من الأدب ان تظفيء حُمّاي؟ وهب انها  
 فعلت فكيف اصبر على ارتوائي والناس يتلون ظمأ حولي؟  
 كيف اخون هذه الحُمّي وهي بحاجة إلى جلدي ولحمي وعظامي!  
 كيف اهرب مع الجني، واترك الدماء تولول في عروقي؟!  
 تقول لي اكتب . وها انا ذا قد فعلت . ألا ترى كيف  
 ارتفع وأهبط ، من شاهق الرابية إلى جحيم السعير بين لمحّة  
 وأخرى؟ تلك هي نفسي . وقد بسطتها بلا تصنع ولا كلفة .  
 فما حاولت منقطعاً ولا انشاءً . بل نثرت افكارني المضطربة كما  
 تواردت على قلبي مع الخبر . وانني لأقرؤها ثانية فألمس اضطرابي  
 صوراً ، صوراً .

اما ( القصة ) فلا أقربها . انها حرم لن ادخله الا وحدي ،  
 ومن حملتهم على كتفي معي ، لأعيش معهم منقطعاً . وعليّ  
 ان اجالسهم في مطعمي ، ومشري ، ومهجعي ، بعيداً عن كل  
 دخيل من هواجسي ، ومحيطي ، حتى تأنس بي ارواحهم ،  
 ويدنبنني اخلاصي لهم من حقائقهم ، حتى ولو كان مثل دنو  
 الحصيان من حرّم السلطان . وفيما عدا ذلك لا استطيع إلا  
 ان اكون مزوراً ، وقاصاً تاجراً . فهات لي الفراغ وامنحني  
 متعة الانقطاع والاخلاص .

انني على يقين - مها تعاورتني شكوكي - من انني لن اذهب  
 بعيداً مع انساني الجني ، ولو رشّ كل درويي بالعطر ، ورسم  
 لي الآفاق بريشة من سحر . انني اهوى هذا الاتون المضطرب ،  
 ومعاادي ابدأ إلى تلك النار التي يستعر فيها الالوف من ابناء جلدي .  
 يقولون انها نار مقدّسة ولماذا لا؟ فهي ، اما ان تحيل  
 المحترقين الى رماد ، او الى سيوفٍ لا تلتوي ، وحديد لا يجرؤ  
 عليه الصدا .

وفي كلنا الحالتين فان البرابرة الجدد لن يجدوا فيها ارضاً  
 تحت الشمس .

والى اللقاء . دمشق . فؤاد السايب

صدر حديثاً :  
**مرآة الضمير الحديث**  
 ( الطبعة الثانية )  
 الدكتور طه حسين  
 دار العلم للملايين  
 الثمن ليرتان

ما ينتجونه ليس بالادب مها بالغنا في إكرامهم . والاديب لا  
 يأتي حدثاً بأدبه إلا على بعد منه في الزمان والمكان ، لذلك  
 عندما يؤرخ الاديب يضع أدباً كبيراً . وان حديث هذا ، ليطول!  
 أفترى؟ ألقِ الآن نظرة عامة على هذه الرسالة ، ترّ في كل  
 ما ذكرت لك عن حياتي ، وحياة بلادي ، وحياة الادب حجة  
 مبررة لهزيمتي ، وقعودي ، وانطفاء طموحي الادبي . هل ترى  
 غير ذلك . ودلّ تقبل بها حجة؟ وهل أقبل بها نفسي؟

انني أفلت من النار أحياناً ، ويمجني انساني الجني إلى قهم  
 الروابي الخضر ، حيث العناقيد الخالدة ، تنام على صحون من  
 أوراق الورد ، فيأمر الحصى الفضية ان تطمئن نفسها لفراشي ،  
 ويقول للأنداء ان ترصع جبيني ... وفي جو من شفوف العطر  
 تموّحها للنسائم ، يدخل عليّ ذكريات حبي وصباي ، يرفلن  
 بكل أرجواني من أمانيّ ويقول لي : اقرأ ... واذا بالدنيا  
 كلّها كتاب مفتوح على دفتين إحداهما في المشرق ، والثانية  
 في المغرب ، وليس وراءهما سوى الهباء والفراغ ، والهاوية !

وإنساني الجني هذا ، يعيش منذ الازل أسيراً في عروقي ،  
 تكبله آدميتي بكل ما لديه من حدود وقبود . وهو عندما  
 يتحرر ، ولا ادري كيف ومتى ، فليس له هم سوى ان يحلمني  
 الى تلك الآفاق العزّاحية البعيدة التي كان يسرّح فيها وعّلّ  
 شبابي المضطرب ، واولى نظراتي الى الدنيا الجميلة ... يوم كانت  
 جدائل الصبايا المدلاة على نهودهن تنظم لي الشعر ، وتسكب في  
 قلبي الخمر والعطر . يوم كنت ابكي على رسائل الحب وانا  
 اكتبها ، ثم ارسلها مبتلّة لتفصح الدموع عيث تعجز الكلمات ،  
 فتعلّمت كيف ينبع الادب من القلب ، وكيف يتفجر الفكر  
 من الشعور . يوم كنت استيقظ بعد نصف الليل هارباً من  
 فراشي لاستقلّ أشباح الظلام فوق الصخور الموحشة ، وسمع  
 نداءات الليل ، ووسوسات الارواح الغريبة ، فتعلّمت كيف  
 تنبعث الاصوات من السكون ، وكيف تنحدر الاخيلة المجنحة  
 من الغيب .

... يوم كنت استقبل مشرق الشمس ساهراً منذ ثلاث  
 ليال ، فما إن تمثلى عيني من الجبال والأودية ، والحراج ،  
 والسهول تلتفت للقاء النور ، حتى أغفي على حجر وأسلم احلامي  
 لنشوة الرقاد .

فمن يردّ لقلبي هواه ، وفكري صفاه ، ولنفسي تلك الطمأنينة  
 التي تجرّها مني أفاعي الملح والقلق؟!  
 اعطني قوة ( لاون ) الاثيني لأمزق هذه الثعابين . اعطني